الفصل الأول

ابن طفيل : حياته وآثاره

ابن طفيل : حياته وآثاره

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسى . فهو ينتسب إلى قبيلة قيس ، تلك القبيلة التى بلغت من الشهرة حداً جعل اسمها يطلق على ما سوى اليمنيين من العرب . وقد ولد فى وادى آش — وهى بلدة فى واد خصيب تبعد عن غرناطة بحوالى ستين كيلو متراً ، فى أوائل القرن السادس الهجرى .

هذا كل ما يذكره التاريخ عن طفولته وشبابه ، لكن ما المركز الاجتماعى الذى كانت تشغله أسرته ؟ كيف قضى طفولته ؟ وأين قضاها ؟ كيف تعلم ؟ وعلى من تعلم ؟ كل ذلك يهمله التاريخ : إذ يمضى سريعاً فيضعه فى غرناطة دارساً للطب ، ثم يضعه فى منصب أمين الأسرار لحاكم ولاية غرناطة ، ثم كاتم أسرار لدى الأمير أبى سعيد حاكم طنجة وهو أحد أولاد عبد المؤمن ، ثم يمضى التاريخ سريعاً فيضعنا أمام ابن طفيل طبيب أبى يعقوب يوسف صاحب المغرب بل صديقه ووزيره . وقد قويت الصلة بين الفيلسوف وأبى يعقوب لأسباب عدة منها :

(١) كان كلاهما ينتسب إلى قبيلة قيس ، وصلة الدم عند العرب معروفة فهما أبناء عمومة كما يقول العرب .

(٢) وكان كل منهما أديبا ، يقول المراكشى عن أبى يعقوب « رقيق حواشى اللسان ، حلو الألفاظ حسن الحديث . . . أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها ، وجميع أخبارها فى الجاهلية والإسلام . . . كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر

فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية . . . صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ، الشك منى : إما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى . حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن » .

هذا هو أبو يعقوب أما ابن طفيل فسنتحدث عن أدبه فيما بعد :

(٣) وكان كل منهما نهماً فيما يتعلق بالمعرفة العلمية العامة فكان عند أبى يعقوب « إيثار للعلم شديد وتعطش إليه مفرط » وكذلك كان الفيلسوف الطبيب الفلكى العالم بالتشريح .

(٤) وأخيراً كان كل منهما متفنناً فى الفلسفة ، أما ابن طفيل فهو فيلسوف بطبعه « وكان متعمقاً بجميع أجزاء الفلسفة » وأما أبو يعقوب فقد « طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطب . . . ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى . . . ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب » .

لكل هذه الأسباب كان الانسجام تاما بينه وبين الملك « حتى إنه كان يقيم فى القصر عنده أياماً ليلا ونهاراً لا يظهر » .

وقد أدى ابن طفيل ، عن طريق هذه الصلة ، حق الزمالة العلمية خير أداء . فكان يجلب العلماء من جميع الأقطار ، ويحض الملك على إكرامهم وتهيئة الجو المناسب لهم .

وهو الذى نبه الملك ووجه نظره إلى ابن رشد « فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم »

فى رحاب هذا الملك عاش ابن طفيل عيشة هادئة مطمئنة . كان فيها الطبيب ، وكان فيها المستشار العلمى ، وهو الذى حفز ابن رشد — تحقيقا لرغبة أبى يعقوب — على العمل العظيم الذى قام به من تلخيص كتب أرسطو وشرحها .

ماذا أنتج ابن طفيل فى فترته هذه الهادئة المطمئنة ؟ . إن المؤرخين يحدثوننا عن « تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والآلهيات وغير ذلك » . ويحدثوننا عن رسالة فى النفس ، وعن رسائل تبودلت بينه وبين ابن رشد فى الطب ، ويذكر البطروجى الفلكى وابن رشد أن ابن طفيل وفق لنظام فلكى يخالف النظام الذى وضعه بطليموس .

بيد أننا على جهل تام بهذا النظام الفلكى وبغيره من النواحى الأخرى . والمصدر الوحيد الذى نعتمد عليه هو رسالة حى بن يقظان فهى الكتاب الوحيد الذى بقى من رسائل ابن طفيل . وإذا كان ابن طفيل طبيبا بحكم وضعه فى القصر ، وفلكيا بشهادة أحد كبار الفلكيين ، وفيلسوفاً آلهياً ، فإنه كان أيضا أديباً ، ورسالة حى بن يقظان تبرهن على ذلك فى وضوح : تأنق فى الأسلوب ، وبراعة فى التعبير ، وسلاسة فى التركيبات ، ولقد طوع اللغة لأفكاره فأدى المعنى فى دقة تامة بأسلوب بارع .

يقول الدكتور أحمد أمين بحق « نحن لو قارنا بين ابن سينا وابن طفيل من الناحية الأدبية ، وجدنا أن ابن طفيل أرقى من ابن سينا بكثير من حيث اللغة والأدب : فعبارة ابن طفيل أدبية مشرقة ، وعبارة ابن سينا معلقة

غامضة ، ويظهر أن ابن طفيل كان مثقفا ثقافة أدبية أرقى من ثقافة ابن سينا ففى كثير من عبارات ابن سينا وألفاظه ما يدل على أنه كان يستقى معلوماته اللغوية من المعاجم ، لا من كتب الأدب ، فجاءت بعض الأحيان نابية . أما ابن طفيل فيستقى معلوماته اللغوية والأدبية من كتب الأدب والمثقفين بها ، فجاءت عبارته أنصع وأبلغ »[1] .

وإذا كان ابن طفيل أديباً ناثراً ، فقد كان شاعراً أيضا ، وإذا كان نثره يمتاز على نثر ابن سينا ، فقد كان شعره يمتاز على شعر ابن سينا أيضا ، وقد كان فى شعره صاحب مزاج ، ذلك أنه لم يكن يتكسب به . ولذلك اقتصر شعره تقريباً على العواطف والفلسفة ، فمن شعره العاطفى :

ولما التقينا بعد طول تهاجر ... وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق ... فلم أدر مَنْ شق الدُّجُنَّة منهما
وساعدنى جفن الغمام على البكى ... فلم أدر دمعاً أينا كان أسجما
فقالت وقد رق الحديث وأبصرت ... قرائن أحوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا ... يهون صعباً أو يرخص مأثما
فأمسكت لا مستغنياً عن نوالها ... ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

ومن شعره فى صلة الروح بالبدن :

نور تردد فى طين إلى أجل ... فانحاز علوا وخلى الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا ... أظنها هدنة كانت على دخن
إن لم يكن فى رضى الله اجتماعهما ... فيالها صفقة تمت على غبن

---

(١) أحمد أمين (حي بن يقظان) .

ومن شعره فى اختلاف الناس من حيث الاستعداد الطبيعى لتقبل المعانى السامية :

ما كل من شم نال رائحة ... للناس فى ذا تباين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم ... بين المعانى ، أولئك النجب
وفرقة فى القشور قد وقفوا ... وليس يدرون لب ما طلبوا
لا غاية تنجلى لناظرهم ... منه ، ولا ينقضى لهم أرب
لا يتعدى امرؤ جبلته ... قد قسمت فى الطبيعة الرتب

* * *

هذا النزر اليسير هو كل ما نعلم عن حياة ابن طفيل ، وعن آثاره التى بادت ، بيد أنه ، لحسن الحظ ، قد بقى أثره الخالد « حى بن يقظان » . وهو قصة بلغت من القوة المنطقية حد الروعة ، فى أسلوب جزل سلس . وقد حوت آراء ابن طفيل فى أهم المشاكل الفلسفية . ولا نبالغ إذا قلنا إنها مذهب فلسفى كامل تتجلى فيه الدقة بكل معانيها . وقد صور فيها ابن طفيل « حى ابن يقظان » ، وقد نشأ فى جزيرة منعزلة عن العالم ، لا أثر فيها لبنى البشر ، فأخذ ينظر ويتأمل ويستنتج متدرجا من المحسوس إلى المعقول ، ومن الجزئيات إلى الكليات ، حتى وصل إلى تكوين فكرة عن الله وعن الملأ الأعلى . ثم أخذ فى الرياضة الروحية حتى وصل إلى طور الولاية . ثم شاءت الظروف أن يصل إلى جزيرته عابد متدين بدين سماوى ، أراد العزلة ليتفرغ للعبادة ، فالتقى به حى بن يقظان . وبعد تفاهمهما وأخذ كل منهما عن الآخر ، التزم حى بن يقظان ما ذكره له العابد من شعائر دينية .

وبعد محاولة فاشلة لمداية المدينة التى نشأ فيها العابد عاد حى إلى جزيرته واستقر فيها إلى أن أتاه اليقين .

هذا ، فى كلمات ، مجمل القصة ، وعليها اعتمدنا فى الكتابة عن فلسفة ابن طفيل .

* * *

ولقد استمر ابن طفيل فى صحبة أبى يعقوب إلى سنه ٥٨٠ هـ حيث توفى أبو يعقوب .

ولما قام بالأمر من بعده ولده أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور مكث ابن طفيل فى صحبته . بيد أن حياته لم تطل بعد صديقه ، فقد وافته المنية بعد وفاة أبى يعقوب بسنة واحدة أى سنه ٥٨١ هـ . فاحتفل بدفنه احتفالا يليق بمكانته ، وسار أبو يوسف يعقوب بنفسه فى جنازته . رحمه الله رحمة واسعة .